شريف الدين بن دوبه
باحث في جامعة وهران

توطئة:

جرت العادة أن يكون تاريخ الإنسان سردٌ، ووصف لحركته الفردية والجمعية في الزمن ، وتاريخ الفكر البشري بأنساقه ومنظوماته ينظِّر لهذه الرؤية الاجتماعية للتاريخ الإنساني، والفيلسوف اليوناني أرسطو يقر بطبيعة الإنسان السياسية فهو على حدّ قوله حيوان سياسي، فالحياة داخل الإطار الاجتماعي جزء من هذه الهوية الإنسانية، فلا يوجد للإنسان تاريخ خارج الجماعة فهناك الكثير من البشر لم يخصص لهم الإنسان أو التاريخ جزءا من صفحاته، وهذا راجع لابتعادهم عند خط الجماعة، أن يصنفون في مزابل التاريخ، فالتاريخ كما يقول لويس لافيل ذاكرة الشعوب فلا تاريخ بدون الجماعة...وجل الفلاسفة يقرون بهذه الحقيقة وان اختلقوه في لصياغة أو في الأبعاد التي تؤلف هذه الحيثية..ونجد العلامة عبد الرحمن غبن خلدون في مقدمته يسلم بالبعد المدني للإنسان في قوله 'الإنسان مدني بطبعه'[1]

والرجوع إلى القرآن الكريم بحكم أنه الكتاب السماوي الأخير والخاتم، يؤكد إلى أن المسار التاريخي للإنسان هو مسار المعرفة فأول حدث ورد في القرآن الكريم يربط بين العلم والمعرفة والوجود الإنساني:يقول تعالى وعلّم آدم الأسماءَ كلها ،ثم عرضَهُم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علمَ لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليمُ الحكيم.))[2]

ولا نريد البحث في مضمون ومحتوى هذه المعرفة ،بل مانرغب في الإشارة إليه هو أن المعرفة جزء ماهوي في الإنسان، وتاريخ الصراع البشري يعود في إعتقادنا إلى نوعية وحجية المعارف المكتسبة...فالربط بين الانسان و الحياة الجماعية يحمل في طياته رؤية مادية للحياة ، فالجماعة كما يعتمدعلماء الاجماع أمثال "اميل دوركايم" تحاكي الظاهرة الطبيعية المادية،فالانسان اجتماعي حقيقة ،ولكن ماهي

[1] عبد الرحمن إبن خلدون المقدمة ص: 20

[2] سورة البقرة (31، 32، 33)

الغاية من الوجود؟ هل هي الحياة داخل الجماعة فقط؟ و اذا كانت الرهطية هي الغاية ، ما الفرق بين عالم النحل و النمل و عالم الانسان؟

وأول خطاب تلقاه الرسول (ص) هو إقرأْ فهي بصيغة الأمر والوجوب، فلإنسان المطلق المعنى واجب عليه القراءة والنظر، فالقراءة ليست المشاهدة للحوادث أو كتب بل هي التأمل والتدبر والتفكر، وقد أخذت كلمة قراءة عدة دلالات في مسار الإنسان فاعتبرت علما، أعتبرت تفلسفا...والفلسفة المعاصرة أعطت لدلالة القراة أبعاد موسعة (فلسفة التأويل الهرمينوطيقة)،ويمكن القول الفلسفة هي قراءة للحاضر والماضي والمستقبل، ومجال الحاضر يتسع إلى حد أصبحت فيه الفلسفة علما جامعا لكل المباحث، وتصنيف الكلاسيكي أنطولوجيا، أكسيولويجيا، إيبستمولوجيا، يؤكد طبيعة الإحتواء والتضمن التي كانت تمارسه الفلسفة على المعرفة وتعليم الفلسفة أو الحكمة بدأ في إعتقادنا مع الإنسان، حيث نلمس في التراث الكثير من هذه التجارب، ويعتبر المثال أو أسلوب التمثيل من بين الأساليب الديدكتيكية التي استعملها الحكماء والأنبياء قبل الإغريق، وهو أسلوب مازال متبعا في تدريس الفلسفة حيث يعمد الأساتذة إلى تقريب تصورات عبر هذه الأدوات وأهمها التشبيه والتمثيل، وإستقراء تاريخ الأديان يؤكد هذه المنهجية.

يمكن الاعتماد على الفلسفة اليونانية كمنظومة ثقافية، ومعرفية يتفق عموم المفكرين على أنها تمثل البداية في دراسة الفلسفة كواقع وآفاق، فأول مدرسة في تاريخ الفلسفة اليونانية هي (مدرسة أيونيا) بزعامة الحكيم طاليس، حيث كان الكون هو المبحث الأثير عند رواد هذه المدرسة، لأن التفسير السائد للوجود كان يتسم بالسمة الميثولوجية والسادجة، ويمكن استثمار (ضحكة الفتاة التراقية) في عرض موقف العامة من الموقف الفلسفي، ومضمون الحكاية يروي سقوط الحكيم طاليس في بركة ماء بعد ما كان ينظر إلى السماء، والأستاذ "عبد الغفار مكاوي "في كتابه "لم الفلسفة "يحلل هذه الحادثة فيتساءل عن علة الضحك هل تكمن في ابتعاد الفيلسوف عن الواقع أم في بعد الفلسفة عن الواقع، والطريقة التي كان ينهجها طاليس وتلامذته هي التأمل الفلسفي .La Reflxion Philosophique.

ما يؤخذ على الفلسفة الايونية أنها كانت دراسة طبيعية، ومادية إلى حد يمكن اعتبار طاليس و تلاميذته انكسنمدرAnaxmanderو اناكسيمنس Anaxmanes علماء اكثر من فلاسفة ،فتاريخ العلم يبدأ مع هؤلاء الفلاسفة.

كما يمكن معرفة مسار الديدكتيكي للفلسفة عبر المدرسة السوفطائية في زعامة جورجياس وبروتاغوراس، ورغم ما يأخذ عن هذه الفلسفة من عيوب وميأخذ إلى أنها أسست لآلية جديدة في تعليم الفلسفة وهي الحوار والمايوتيك الذي لازال من الضروريات التربوية والذي يقابل آلية التلقين ... وقد أسس الفيلسوف اليوناني سقراط لهذا المسار التربوي عبر حوراته التي سجلها تلميذه أفلاطون مثل محاورة كراتيل، فيدون، فالمحاورة الأولى يتعرض فيها سقراط لمسألة العلاقة بين الدال والمدلول وهي من قضايا الفلسفية واللغوية والأسلوب الذي ينتجه سقراط يعكس العمق في البساطة التي تطرح بها المسألة...من بين القواعد التي قدمها سقراط في تدريس الفلسفة قاعدة الشكل المنهجي التي تعكسه المقولة الشهيرة (إني لا أعرف إلا شيئا واحدا وهو أنني لا أعرف شيئا) فالشك يساعد على بلوغ المعرفة وهذا مابلوره الفيلسوف الفرنسي ريني ديكارت René Descartes 1596-1650.

إن نتبع مسار التربوي للفلسفة يكشف أن المعرفة الوحيدة التي أخذت بعدا مؤسستيا هي الفلسفة حيث نلاحظ أن أكادمية أفلاطون من بين مؤسسات المعرفية التي كانت تسير وفق قواعد ونظم والأكادمية تنسب إلى مكان غير بعيد عن أثينا وهي حدائق البطل الأسطوري أكاذيموس.ويمكننا هنا التمييز بين الأكاديمية القديمة، التي قادها بعد وفاة أفلاطون ابن أخته سْبِفسِبوس، ومن بعده كسينوكراتِس. وعقيدة هذه المدرسة كانت أقرب إلى الفيثاغورية، فلعبت دورًا هامًّا في تعليم الرياضيات والفلك، حيث كان المذهب الأفلاطوني يعلَّم فيها على أساس علم العدد أما الأكاديمية الوسطى (أركِسيلاس، 316-241 ق م)؛ وقد تأثرت بمذهب الشك أما الأكاديمية الجديدة (كارنيادِس، 215-126 ق م، وفيلون اللاريسي، إلخ)؛ وقد تطورت مع تطور الرواقية، ووقفت موقفًا مناوئًا من كلٍّ من مذهب الحقيقة الرواقي ومن الاحتمالية التي سبقتْها، والملاحظ على مسار هذه هذه المؤسسة أنها تطورت تبعا للمناهج المتبعة في تدريس الفلسفة.

ومن بين المؤسسات التربوية التي إشتغلت في تدريس الفلسفة مدرسة أرسطو التي عرفت باللقيون التي أسسها على حد توصيف عبد الرحمن بدوي:(في سنة 353 ق.م) بالقرب من معبد أبلون اللوقيوني، ومن هنا سميت هذه المدرسة بإسم اللوقيون، وقامت تنافس أكادمية أفلاطون التي صار على رأسها آنذاك زميله القديم أكسينوقراط، وظل أرسطو يدرس في مدرسته عذه مدة إثنتي عضر سنة، ويقوم بالأبحاث الفلكية والتشريحية والجوية والبيولوجية.[3]

الفلسفة قبل ان تكون خطابا يتحرك وفق لمنطوق سلطوي، هي رسالة.. رسالة تحايث الواقع الإنساني في بعده الفردي والجماعي، وفي بعده التموقعي الطبيعي المادي، فحركة الفلسفة بدأت من فهم ومعرفة الكوسموس إلى فهم الإنسان عبر اللحظة السقراطية، فالرسالة في فلسفة اللغة تتركب من (راسل رسالة مرسل إليه)وعليه فإن رسالة الفلسفة موجهة نحو راسلٍ أو متلقي المتلقي أو المتعلم أو التلميذ (الفضاء الثانوي) الطالب (الفضاء الجامعي).

المتلقي للفلسفة:

لا يمكن تحديد صنف ثابت واحد ومعين للإنسان الذي يوجه إليه الخطاب الفلسفي أو الفكر الفلسفي، فهناك (التلميذ,المتلعم - بإصطلاح وزارة التربية) و(طالب في إصطلاح وزارة التعليم العالي والبحث العلمي) أما الإنسان العادي فلم تحدد له التسمية بعد فالرسالة الفلسفية موجهة لهؤلاء الأشخاص).

عوائق تدريس الفلسفة بالنسبة للمتلقي:

العوائق الثقافية:

تشكل الرواسب الثقافية مادة أولية لجميع الأحكام الأولية التي يصدرها المتعلم أو الطالب على الفلسفة (وإن كانت بالنسبة للطالب الجامعي في مستوى أقل، وأهمها المطابقة بين السفسطة والفلسفة التي حرمت الكثير من البشر من نعمة التفكر والتأمل.

[3] عبد الرحمان بدوي موسوعة الفلسفة الجزء الأول مؤسسة العربية لدراسات والنشر، بيروت ط1 1984 ص99

"الفلسفة تؤدي إلى الكفر والزندقة" هذا ما عابه رجال الدين على الفلاسفة. إذا اعتبرنا صعوبة تفهم العامة للغة الفلاسفة نظرا لانفصال الفلاسفة عن المجتمع وعدم ارتباط فكرهم بحركة اجتماعية وبمجال عمومي مفتوح كحالة اليونان القديم) فإنه من اليسير جدا توجيه تهمة الزندقة والكفر من طرف رجال الدين إلى الفلاسفة وتأليب الجمهور الواسع من الناس ضد هؤلاء إلى حد أنه وفي أغلب الحالات أصبح الفيلسوف يتجنب ما استطاع من جهد الحديث عن الفلسفة. إن الفلسفة العربية الإسلامية رغم التصاقها الشديد بالدين وعملها على التوفيق بينهما وارتباطها المتين بجهاز السلطة القائم (بالخصوص بالنسبة للمعتزلة) وبغاياته فإنها بصفة عامة لم تلاق الترحيب فكان الانتصار لرجال الفقه والدين ولعل ذلك تدعم مع بروز فكر الغزالي الملقب بـ "حجة الإسلام" هذا الأشعري القائل بالمعرفة الصوفية. فمع أن الفلسفة حامت حول الدين فإنه يمكن القول مع محمد أركون أن "روح الأرثوذكسية الصارمة" قد انتصرت لدى كل الكتاب والمؤلفين بينما احتقن الموقف الفلسفي كليا فالنصر كان للفقيه والشيخ والمرابط.

ويليها في درجة الخطورة الإديولوجية والتوجيه السياسي للفكر العامي.

العوائق البسيكوثقافية:

الخوف من تاريخ الفلسفة:

لتاريخ الفلسفة إذن مهمة مزدوجة، فهو من جهة أولى يدرس العلاقات بين الفلسفة واللا-فلسفة، فيتساءل عن مصير التجربة، التجربة الساذجة والعالمة كذلك، عندما تنعكس في فكر الفيلسوف. وجميع الأنساق الفلسفية، حتى عندما تشكك في براءة التجربة الطبيعية، كانت دوما تقصد اللقاء بين الفكر والوجود، وتبحث عن الحقيقة الضرورية عبر تقلبات الوجود الفعلي. غير أن تاريخ الفلسفة لا يفتأ أن يتحول إلى تاريخ بالفعل من خلال إعادة النظر في التراث الميتافيزيقي. فبالرغم من أن الأنساق الفلسفية تحافظ على وجودها إزاء تحولات الزمن، فإن شيئا مع ذلك يكون قد تغير في مسار ذلك التاريخ. وإذا كانت الميتافيزيقا تعود في أصلها إلى بداية الفكر اليوناني حيث ارتبط اسمها بأرسطو، فمن المؤكد أن سؤال الميتافيزيقا لم يطرح إلا ابتداء من كنط، وهو سؤال إمكانية الميتافيزيقا من حيث هي كذلك. إذ مع

كنط تضع الميتافيزيقا نفسها موضع سؤال من حيث مبدئها ومعناها وتاريخها إلى حد أصبح من المستحيل اليوم فصل الفكر الفلسفي عن عملية الانعكاس على ذاته.

وقد لاحظ إميل بريهيه أنه مع بداية القرن التاسع عشر شرع الفكر الفلسفي، سواء في أوروبا أو خارجها، في تساؤل منتظم حول ماضيه الخاص، وذلك بدافع البحث عن المعرفة الجيدة بذاته أكثر مما هو اهتمام بالبحث الخالص، مع حصول اليقين أن المذهب الفلسفي لا يمكن أن يتشكل إلا في علاقته بالتيارات السائدة في التاريخ. وهذا معناه أن "العمل الفلسفي دائم الاتصال، والتاريخ وحده يستطيع إزالة وهم البداية المطلقة".

ومع ذلك فثمة خوف من التاريخ، لا بوصفه نظاما متخصصا له قواعده، وإنما التاريخ كأداة أو وسيلة لتحصيل الثقافة الفلسفية، ولأسباب متعددة، بعضها يتوقف على التاريخ والبعض الآخر على الفلسفة ذاتها. ذلك أنه "من الممكن اليوم –كما يقول شاتلي- استخدام الإحالة إلى فلاسفة الماضي، في اتجاه نزع القداسة وإزالة وهم الخطابات الراهنة للنظام القائم".

ويعتقد بريهيه وجود تصور ضيق لتاريخ الفلسفة في مقابل تصور واسع. ويدخل تاريخ الفكر الأوروبي في نطاق التصور الأول، أما التصور الثاني فيتكون من تاريخ الحضارة. ومع أنه بمقدورنا حصر تاريخ الفلسفة في دراسة المؤلفات التقنية للفلاسفة، فإن ادعاء التقنية يطرح بحد ذاته مشكلا فلسفيا، إذ ما هي التقنية في الفلسفة؟ وما هو الجانب التقني المقصود في العمل الفلسفي؟

إن الأعمال التي تكتسي أهمية كبرى، في نظر بريهيه، هي تلك التي تتخلص من تقنية مدرسية غالبا ما تكون سببا في تقلص الفكر وجموده. ونموذجه في ذلك أفلاطون وديكارت وشوبنهاور وبرغسون. فهؤلاء كلهم جعلوا من الفلسفة مبدأ الحياة الروحية ينعكس فيها الفكر على ذاته وعلى جميع مظاهره في الحياة الإنسانية.

بهذا المعنى يدافع بريهيه عن تعليم تاريخ الفلسفة، كتعليم مطالب بإظهار أن الفلسفة كانت دائما، وفي أسمى مظاهرها، تأكيدا وإثباتا للقيم الروحية والكونية، وحمايتها من الوقوع في النزعة المدرسية التي

تتهددها باستمرار، "فلا وجود لتاريخ الفلسفة بدون فلسفة التاريخ، أي بدون ما يثبت الوجهة التي يتخذها معنى التاريخ".

وقد ميز شاتلي بين موقفين بارزين في استخدام تاريخ الفلسفة، موقف لا يعترف بتاريخ الفلسفة، بل يدينه بوصفه من الماضي غير الضروري، وموقف يخضع تاريخ الفلسفة لاستخدام انتقائي حسب معايير الحاضر.

إن التأويلات المتناقضة والمتضاربة بشأن تاريخ الفلسفة، والمعنى الذي يعطى للتاريخ في هذا السياق، تجعل "مسألة تاريخ الفلسفة" تطرح في كل مرة طرحا جديدا، لأن "تاريخ الفلسفة ليس منطقة مستقلة داخل حقل التاريخ، إنه غير معزول عن تاريخ الإيديولوجيات، وبنفس الدرجة غير معزول عن تاريخ المجتمعات وتحولاتها".

وفي ضوء ما سبق، يبدو أن مختلف أشكال التردد إزاء تاريخ الفلسفة وكذا التأويلات المتناقضة والاستخدام السيء لفلسفة التاريخ، وما ترتب عن ذلك من أضرار في تعليم الفلسفة، إنما ترجع إلى سوء فهم موقف كل من كنط وهيغل، وهو سوء فهم أو سوء تفاهم، راج مع الأسف لوقت طويل بين المشتغلين بدرس الفلسفة.

كل متعلم أمقبل على التعلم الفلسفة يحمل افكارا أولية حول الفلسفة يكون قد استقاها من المحيط الثقافي.تكون عائقا أمام نجاعة العملية التعلمية.

العوائق الموضوعية:

القضايا والمحاور:

يؤخذ على المناهج التربوية أن القضايا لا تتناسب مع ميول ورغبات (المتعلم والمحيط)، فجميع البلدان اعربية استقت منهاجها في تدريس الفلسفة من أوروبا، بحكم تبعيةالتي كرسها كل من الإستعمار الفرنسي والأنجليزي ،فمنهاج الفلسفة الذي قررته الدولة الجزائرية بعد الإستقلال أقتبس شبه كليا من المنهاج الفرنسي ، وللأسف حتى منهاجية التعاون معالعناصر داخل الدرس مطابقة للكتاب الفرنسي،و الغريب في الأمر أن المنهاج لم يتعرض لأية قضية تراثية اللهم إلا موضوع الأمة الذي اشار إليه الأستاذ

محمود يعقوبي باقتضاب ، و ما يصدق على الجزائر يصدق على باقي البلدان العربية (سوريا- لبنان – مصر- تونس....).

و من بين المشاكل التي تعيق العملية التربوية لتدريس الفلسفة ، عدم مراعاة الزمن المخصص لهذه المواضيع ، فواضعي المناهج الفلسفية كما يقول سماح رافع محمد : (لايعملون اعتبارا للزمن المخصص لهذه المواد (الفلسفية) في الخطة الدراسية ،وغالبا ما يعتقدون ان موادهم وحدها هي محور الدراسة في القسم الأدبي .)[4]

فهناك بعض القضايا تحتاج إلى حجم ساعي كبير يتحدد من خـــــلال تشخيص قابليات التلاميذ أو المتعلميـــــن ، و لا يتحدد بصـــــــورة فوقيـــة (عمودية)، وهذه العلاقة العمودية بين واضـــــع المنهاج و المعلم - المتعلم أفرزت بعض الحالات التربوية و الأخلاقية ، أهمها تحمل المعلم مسؤولية الأخطاء التي يرتكبها واضعي المناهج ،فيجد نفسه مضطرا لإضافة حصص إضافية و تدعيمية لإنـــــهاء المنهاج كما أن فشـــــل التلميـــــذ يكـــون من نصيب الأستاذ ، وهذا ينعكس سلبا على الفلسفة كنمط معرفي.

و من بين المشاكل التي تعترض تدريس الفلسفة قضية تعدد الآراء و اختلاف وجهات النظر ، وهي جزء من ماهية الفلسفة و لكن المسألة تطرح على مستوى المتلقي (المتعلم)، فالحيرة الفكرية التي تثيرها المفارقات الموجودة بين الأطروحات الفلسفية تفقد لدى المتعلم الحلم بالوصول إلى المعرفة داخل هذه المعرفة (الفلسفة)

كما أن هذه القضايا تميل إلى التجريد والبعد عن الإرهاص الواقعي، فهي صورية شكلية ، فمحور المنطق الصوري بأزائه أو مباحثه (التصورات و الحدود ، الأحكام و القضايا ، المحاكمة و الاستدلال) ومن بين النتائج التي يتوصل إليها التلميذ مع معلمه أن المنطق الصوري بعيد عن الواقعية و هذا يؤكد المفارقة القائمة بين الفلسفة و الواقع...و كثيرة هي القضايا الفلسفية التي تسبح في فضاء التجريد الصوري و يمكننا الإستئناس بأبيات شعرية للشاعر الألماني هايني يصف فيها فلسفة هيغل حيث يقول "لقد أقلع

[4] سماح رافع محمد ،تدريس المواد الفلسفية في التعليم الثانوي، دار المعرف،مصر 1976 ص:101 (د.ط).

هيغل على ظهر سفينة متجها نحو القطب الشمالي للفكر ، حيث لابد لعقل المرء أن يتجمد في صقيع المجرد "و هذا الإغال في التجريد وضع الفلسفة موقع ازدراء من طرف عامة الناس ،وهذا هو الواقع المأسوي الذي تعيشه الفلسفة في بلادنا.